التلازم بين الخوف والقلق ألم إنسانية الإنسان

أ.م.د حسن حمود الطائي
كلية الآداب – الجامعة المستنصرية

المقدمة

هنالك مباحث نفسية لابد منها في الأخلاق كالغريزة (غريزة حفظ الذات، وغريزة حفظ النوع) وكذلك غريزة الخوف بالإضافة إلى القلق.

إن علم النفس يبحث في قوى الإحساس والإدراك والحافظة والذاكرة وفي الإرادة وحريتها والخيال والوهم والشعور والعواطف وفي اللذة، والباحث في علم الأخلاق لاستغني عن هذه المباحث ويترتب على تلك العلاقة بين هذين العلمين القول الذي مفاده ((إن علم النفس هو مقدمة لازمة لعلم الأخلاق))(١) وفي ضوء هذه العلاقة بين الأخلاق وعلم النفس يطرح التساؤل حول الذات ولماذا نحتاج إلى معرفة الذات، ولماذا نهتم معرفة الذات وذوات الآخرين وإلى أي شيء نصل من خلال معرفة الذات، وأن معرفة الذات تكون مقدمة لأي شيء.

والجواب هنا هو إننا ومن خلال معرفة ذاتنا هي مقدمة لمعرفة معنى الله(٢) هذا هو الأمر الأول، والأمر الثاني في معرفة الذات هو إننا نعرف ذواتنا لكي نعرف ماذا ينبغي لنا إن نفعل في الحياة والعالم وكيف نتصرف أي في مجال الأخلاق والعمل معا. لذلك نجد الإنسان حريصاً دائماً على معرفة ذاته وهو يخشى ذاته وربما يخشى الآخرين خوفا على هذه الذات من إن لاتصل إلى الدرجة التي تشعرها بإنسانيتها وأدميتها فهي قلقة دائمة، فالإنسان قلق على أدميته التي فارقها في لحظة من لحظات التاريخ فهو جاء من دنيا أخرى لأداء رسالته فأنفصل عنها وابتعد، وان ابتعاده عن أصله هو الذي يثير فيه الشوق والعشق والأنين والإحساس بالغربة وربما الرغبة في العودة إلى الأصل الوطن أي الرجوع إلى الله. فهو قد احرج من الجنة وجيء به إلى دنيا الأرض ويريد إن يرجع مرة أخرى إلى تلك الجنة الموعودة. وهذا المثلث (أخلاق، وخوف، وقلق)(٣) يتخلله الم ومعاناة عدم الانسجام مع هذا العالم وربما الخوف من عدم تحقيق تلك الانسنه، وكم هو عدد الذين عاشوا وغادروا هذه الحياة ولم يصلوا إلى هذه المرحلة بل لم يتألموا حتى لإنسانيتهم لأنهم لم يحققوا انسجامهم مع هذه الحياة ومما تتطلب منهم كأناس أقول هنا إن الخوف هو غريزة متأصلة في الإنسان وتصحبه من أيام طفولته وكثيراً ما تتصادم هذه الغريزة مع غرائز أخرى كالغضب والحب الاستطلاع وغيرها. والخوف أيضاً هو تألم القلب واحترافه بسبب توقع مكروه في المستقبل وهو على نوعين احدهما مزعوم بجميع أقسامه وهو الذي لم يكن من الله ولا من صفاته المقتضية للهيبة والرعب ولا من معاصي العبد وجناياته(٤) ويختلف عن الجبن. فالجبن هو سكون عما يستحسن شرعا وعقلا من الحركة وهذا السكون قد يحدث من غير حدوث الألم الذي هو الخوف مثلاً من لايجترى على الدخول في السفينة أو النوم في البيت وحده، أو التعرض لدفع يظلمه أو يتعرض له ويمكن اتصافه بالسكون المذكور مع عدم تألم بالفعل فمثله جبان ويس بخائف(٥).

وثانيهما. الخوف المحمود وهو الذي يكون من الله ومن عظمته ومن خطأ العبد وجنايته وهو من فضائل القوى الغضبية، إذ العاقلة تأمر به وتحسنه فهو حاصل من انقيادها لها. والخوف ملازم للإنسان في وحشيته ومدنيته، يخاف على نفسه وعلى ملكه وعلى صحبه، أنه يخاف من الأوهام ويخاف من الفقر ومن

كبر السن ومن الموت فهو عبد للخوف حتى يموت[٦] إما عن القلق فهو خوف غير محدد وغير عقلاني وهو يتجسد بشعور مؤلم بالعجز تجاه خطر يفتقد إلى الوضوح والتجديد، والقلق حاله نفسانية وفزيائية أو غالباً ما تتلازم هذه الحالة مع بعض التعديلات والتغيرات العصبية على المستوى الفسيولوجي كخفقان القلب مثلاً والارتجاف كذلك.

ومن وجهة نظر تكوينية يبرز القلق للمرة الأولى حين يبلغ الطفل الشهر الثامن وذلك في غياب إلام وحين يواجه شخصاً غريباً ويرى اتو رانك إن التجربة الأولى للقلق مرتبطة ((بهلع الولادة)) حين يكون على المولود الجديد إن ينتقل من وسط مائي إلى بيئة مختلفة تماماً[٧].

والقلق حالة تتسم بتوقع الخطر أو بالتهيؤ له وهو يختلف عن الذعر، فالذعر يمثل حالة يولدها خطر راهن لم يكن الفرد مهيأ له، وهو يتسم أساساً بعنصر المفاجئات والخوف يفترض موضوعاً ممهداً[٨].

ويميز فرويد بين نوعين من القلق بين القلق الموضوعي وبين القلق العصابي فالأول. هو الخوف الطبيعي الذي نجده كرد فعل يتوقع خطر حقيقي خارجي إما القلق العصابي، فهو خوف من نمط غريزي داخلي[٩]. وبموجب ذلك يمكن لنا القول: إن الإنسان هو مخلوق قلق مدفوع إلى توسل رضي الناس، الإطراء يستهويه والكبرياء شر ما انتحل ونظرة لهذا الإنسان القلق والخائف تجعلنا نقول بان هناك تلازما بين الخوف والقلق فهما متلازمان وان أمكن غلبة أحداهما على الأخر نظرا إلى كثرة حصول أسبابه[١٠] والحقيقة عندما نخاف فأننا في الوقت ذاته، فنحن نقلق ونخاف على ذاتنا، على مصيرنا على أمالنا وطموحاتنا، وأننا لولا الخوف والقلق لما تمكنا من تحسين أفعالنا وتقويم سلوكياتنا فهما محمودان أحياناً ومذمومان في أحيانا أخر.

ويقول د. زكريا إبراهيم في كتابه (المشكلة الفلسفية) إن الإنسان لا يتفلسف لأنه يشقى ويتألم فحسب، بل هو يتفلسف أيضاً لأنه يمل ويسأم، وأضيف إلى قول د. زكريا هذا إن الإنسان يمل ويسأم لأنه يخاف وليس الخوف هنا بمعنى الجبن ويقلق أي أيضاً وربما لو كان باستطاعته إن لا يقلق ولا يخاف لاستطاع إن يقلل من إحزانه ويبعد الكثير من الهموم والغموض التي ربما تعترض سلوكياته المختلفة.

وفي حالات القلق أيضاً يمتلك الشخص انفعالا شديد بالموقف والأشياء بما يبعث على التردد والخوف، فتضطرب العلاقة بالآخرين فيميل الشخص إلى التناقض والحمق والتطرف، وبالرغم من إن كثيرا من المصابين من إمراض القلب والمخاوف يظهرون كثيراً من الحساسية لمشاعر الآخرين إلا إن هذه الحساسية غالباً ما تتقلب إلى لوم الآخرين ونقدهم بما يضعف قدرته على توجيه تفاعلاته بالآخرين وجهة ناجحة[١١]. وثمة ما يؤكد إن حالات القلق غالباً ما تكون مصحوبة بالعجز عن تجميل ضغوط تفرضها بعض العلاقات الاجتماعية ولهذا ما يجنح سلوك المصابين بالقلق للتناقض والتوتر خاصة عندما يتوجهون إلى أساليب أخرى للتخفيف من القلق[١٢].

الخوف ومفردات أخلاقية أخرى:

١-**المصير:-** هو تبيان لهدف ما في الصيرورة البشرية وهذا يمثل تقلباً وجودياً للأمة أو للفرد وفي كلتا الحالتين ينطوي مفهوم المصير على معنى يريد العقل أو يبرد الوجود التأريخي.

كلامنا هنا يقتصر على المصير الفردي إبرازا لتخطي الإنسان لذاته إذ انه يستطيع إن يحققها بتخطيه لها. والمصير هو مسيرة عبر الزمن بما فيه من تعاقب التجارب والمهن بين قطبي الزمنية: ألتوق واستحالة

النكوص. فالحياة كما تبدو للإنسان ليس بالأمر المهم بل هي في الواقع لا شيء من حيث المعنى. هي لا تمنحه الشعور بالكمال إلا في هنيهات نادرة مشعة بالحنين.

ذلك إن الطابع المميز للمصير البشري هو النقصان، فالإنسان لا ينفك يعتريه شعور بنقص ما هو ضروري ومن عدم تمتعه بالضروري يتولد ألتوق وما ألتوق إلا الإحساس بالفقد والرغبة بالحيازة... وأن ألتوق بالتحديد هو توق إلى التحرر من الزمن، ولتعذر الشعور بالكمال ما كانت الحياة لتولي الإنسان إلا ألتوق الكئيب لان يحيا[١٣].

(١)-فالوجه الأول للمصير البشري وجه حيواني وهنا لا تعمل البصيرة البشرية في تيار معاكس بل في تيار نشاطها المتعلق بالتناسل والاختراق.

(٢)- والوجه الثاني للمصير البشري وجه خلاق في زمن الخليفة يجد الإنسان زمن الإبداع هنا يوجد نفسه بنفسه زمنه المكتف الذي يظهر من خلال العمل.

والمعنى الأسمى لفعل الإبداع هو إفراز غير المحدود في الزمن المحدود.

(٣)- إما الوجه الثالث للمصير البشري فهو روحاني فالإنسان لا يكتفي بوجود اللامتناهي في الخليقة انه يتوق إلى إن يذوب كليا في اللانهاية وهذه حالة لا تحصل إلا في النشوة الصوفية أو الموت[١٤].

إن معظم الفلسفات ترى إن المصير الإنساني هو مصير مأساوي ولا أمل فيه وأن جهود الإنسان ومساعيه ما هي في نهاية الأمر إلا ضياع بل الوجود الإنساني بكل إبعاده على حد تعبير الفلسفات الوجودية هو ضياع. وتطرح هذه الفلسفات سؤالاً دائماً ومتجدداً هل إن الإنسان يخاف بدافع القلق أم انه يقلق لأنه يخاف. إنني هنا أشاطرها الرأي عندما أجد نفسي والآخرين جميعا ننتهي إلى حتمية الفناء والوجود الذي لا مفر منه.

وإذا حاول الواحد منا يستفهم من ذاته، وربما هي ذاته تستفهم منه عن سر هذه النهاية المحتومة في وسط عالمنا الفوضوي هذا والغير منتظم بكل جوانبه وربما تراودني باحث الكثير من الأسئلة وأنا اطرق هذا الباب منها: من أنا، ما الإنسان، ما الذات، هل اعرف ذاتي إنا، هل اعرف من إنا، فكم منا من لا يعرف ذاته، وماذا نبغي نحن من إنسانيتنا ومن أدميتنا، هل نحن في ضياع، وهل هذه الضياع متأني من الخشية والخوف على ذلك المصير، انه الم إنسانيتنا التي لا تمدنا الشعور بالكمال، ولأننا دائماً نحس بالفقدان والرغبة في الحيازة فنظل نخشى ونخاف ونقلق.

٢-الألم:-

يمكن القول على وجه العموم إن الألم هو بمثابة حالة مزعجة يحاول الفرد قدر الإمكان إن يتجنبها وقد اعتبر بعض الفلاسفة إن الألم هو المعطى الأول للحياة العاطفية والشعورية، وأن اللذة لا تتحدد إلا انطلاقاً منه وبالنسبة إليه واللذة في رأي بعض المفكرين ليست سوى غياب الألم.

ونلحظ هذه الفكرة في أحدى حواريات أفلاطون ففي فيدون مثلاً نرى سقوط يتنعم باللذة بعد تحرره من القيود الحديدية التي كانت تؤلمه[١٥]. ويرى اسبينوزا إن اللذة مرتبطة بفقدان الألم والإثارة والهلع والخوف والتقشف عنده ربما يبعد الخوف من الألم بل يبعد كل ظروفه. كما رأت بعض الديانات السماوية في

الألم ثمة أخلاقية فالمسيحية ترى على سبيل المثال إن الألم هو فضلة تسمح بالتفكير عن الخطيئة التي ورثها الإنسان من ادم.

ويعتبر علماء النفس إن الألم يتولد وبحسب أبحاث فون فرايد إن هناك مستقبلات حسية خاصة بالألم كما تم اكتشاف ألياف عصبية خاصة تقوم بنقل الشعور بالألم وهي ألياف ضيقة مجردة جزئياً أو حتى كلياً من النخاعين وتبين أيضاً وجود مركز للألم في الدماغ وهو السديد. كل هذه الاكتشافات الفسيولوجية أدت مجدداً إلى السؤال الفلسفي القديم وهو سؤال من النمط التالي هل للألم وظيفة؟ هل يكون الألم مفيدا(١٦)؟

ويبدو إن الم الموت الذي نجده عند البعض خشية وخوف قد نجده عند البعض الأخر هو سعادة طالما توصله هذه السعادة إلى اسمي يخلصه من مأساته ويقربه إلى ما يسمى بالفرح الكوني. وفاتنا إن نذكر إن ارسطو قد تكلم عن قصديه الألم واعتبره مؤشرا لخطر يهدد الكائن فيسمح له أي للكائن الحي بتجنب هذا الخطر. ويعتقد الفيلسوف الألماني شوبنهاور إن الألم يتصف بالإيجابية وأن اللذة هي مجرد نفي الألم، والألم في رأيه هو ملازم للحاجة ذلك إن كل حاجة تتضمن غياب الألم ويمكن بالنسبة إلى شوبنهاور اختزال الموافقة لاختيار الموضوع إلى مجرد غياب الألم.

٣-الاغتراب:-

أن الإنسان يحب وجوده، ويحب أيضاً كمال وجوده لان لديه إحساس بأنه لحظة من لحظات البشرية انه كان في حالة من الكمال فهو يحن دائماً إلى حالة كماله وحتى إذا بحثنا في الكثير من مفردات القرآن الكريم هذا الكتاب السمح والعظيم فسوف نجد إن الله سبحانه وتعالى يخاطبنا دائماً بمفردة تعالوا بمعنى تعالوا أدليكم على ما هو حسن وما هو قبيح بمعنى اعلوا إلى ما هو سماوي، حتى فرعون نجده قد تعالى لكنه تعالى على ما هو راضي.

من هذه المقدمة أقول إن المهتمين بهذا الشأن يرون إن خروج الإنسان من الجنة ونزوله إلى الأرض هي عقاب لإرادة خالقه، فهو انتقل من حالة الكمال إلى حالة النقص، ففيها كان مع الله بمعنى انه كان متوافقا مع جوهره ككيان قريب من الله ثم أصبح في الحالة الثانية غريبا عن جوهره لان الله أقصاه من الجنة إلى الأرض ويعتبرون هذه الحالة اغترابا.

ولقد تحدثت في صفحات سابقة عن حالة الضياع عندما لا يجد الإنسان ذاته فهو يخشاها أقول عن هذه الخشية هي الضياع بعينه، هي ليس من قبيل الانفعالات والمشاعر التي تنتاب الإنسان الواعي.

إنا أقول حتى الإنسان الجاهل هو يخشى ويقلق ويخاف وهو أيضاً في حالة ضياع واغتراب وبالمناسبة أيضاً فان الجاهل هذا ليس الذي لا معلومات لديه بالعكس تماماً هو ممتلئ معلومات لكنها فوضوية تبحث عن عنوان لها.

هيجل يرى إن الإنسان يكون مغتربا عندما لا يتعرف على ذاته في هذا العالم ويجاوز ذاته ويتجاوز اغترابه الذي يخشاه ويخافه عندما يصبح العالم جزء منه وبهذا المعنى فان الاغتراب هو حالة المصالحة بين الذات والوجود الذي يخشاه الإنسان ويقلقه.

وهناك من يرى إن مقولة الاغتراب مرتبطة بمقولة الجوهر الإنساني وهي مقولة مثالية بامتياز ولذلك فان مناقشة الاغتراب تتضمن مناقشة الجوهر الإنساني الفاني والزائل فعندما يفقد الإنسان جوهرة

بمعنى يغترب عنه فيبدأ رحلة الخوف والقلق وقد تقود هذه المشكلة أي عندما لا يجد الإنسان ذاته وجوهره الذي قلنا عنه اغترابا تقود إلى حياة سطحية خاوية يعوزها عمق الاستبصار وينقصها الإحساس بالمعنى والقيمة وهذا ما يعانيه الإنسان في اللحظة المعاصرة من تاريخ البشرية فحياتنا تبتعد عن السكينة والتأمل والتفكير طالما الحياة هذه حياة حركة وسرعة وتعجل ومطالب متلاحقة لو تأنى في اختيارها لفاتته إلى غير رجعة، فالإنسان المعاصر يشعر دائماً بغربته وعزلته حتى في أوج لحظات حياته سعادة وابتهاج، فهو كائن قلق وخائف من زوال لحظات السعادة والابتهاج هذه.

وهناك ن يثير ويطرح التساؤل فيما إذا كان الاغتراب صحيحا أو مرضيا وهل هو جوهري في الإنسان أي هل هو داخل في صميم الوجود الإنساني أم ظاهره خارجية عرضية مرتبطة بالظروف والأوضاع الاجتماعية؟

هنالك رأيان للإجابة على هذه التساؤلات

١- ترى الوجودية بوجه عام إن الاغتراب داخل صميم الوجود الإنساني وانه داخل في نسيج الإنسان، نحن مدانون بالاغتراب، ومهما حاول الإنسان من خلال الحرية ومن خلال إحساسه بالزمان، ومن خلال علاقاته الاجتماعية، ومن خلال العمل إن يتجاوز أو إن يشفى فانه سيموت مغترباً والحياة نفسها اغتراب.

٢- هنالك رأي أخر هو رأي علماء النفس والفلسفة الماركسية يقول هذا الرأي إن الاغتراب ظاهرة عرضية تنشا في ظروف نفسية وفي ظروف اجتماعية واقتصادية يمكن تجاوزها، وإذا ما وجد في مجتمع وفي نظام له فيه دور في صنعه وفي اخذ القرار يمكن عن طريق المحللين النفسيين العودة بالإنسان من خلال تذكر ماضيه واكتشاف ذاته وبالتالي الوصول في علاقات اجتماعية سوية مع الآخرين.

وفي الإسلام صحيح إن الإنسان مغترب، ولكنه في نفس الوقت سعيد سعادة حقيقية لان الإسلام يؤكد على الحياة الأخرين تأكيد تاما ويقول أنها خير وأبقى ويعد المسلم بكل الملذات الاخرويه إضعاف ماهية عليه في الدنيا، والتغريب في الاستعمال الإسلامي يأخذ معاني عديدة، فلقد استعمل التغريب بمعنى العقوبة الزاجرة وهي واحده من أنواع العقوبات الثلاث الحد، والقصاص، والزواجر فاستعمل التغريب في الفقه الإسلامي من الزواجر من شدة ايلامه(١٧).

وتأتي الغربة بمعنى الانفراد، والانفراد أما بالجسم، وأما بالقصد والحال وأما هما سوية، كأن الغريب غريب جسم، أو غريب قلب وإرادة وحال.

ويمكن وضع الغربة هنا في درجتين:-

الدرجة الأولى: الغربة عن الأوطان ← الانفراد بالجسم

الدرجة الثانية: غربة الحال ← هي غربة الغرباء وهي كغربة رجل صالح في زمان فاسد بين قوم فاسدين أو عالم بين قوم جاهلين، أو صديق بين قوم منافقين(١٨).

وإذا سادت مشاعر الاغتراب نتيجة صحوة الذات الثقافية مع بقاء الدولة على حالها أصبحت الذات في جانب والدولة في جانب أخر وفي هذه الحالة يندفع الإفراد رغم عنهم إلى الاحتماء داخل ذاتهم لحماية حريتهم خارج الدولة وبمعزل عنها، في هذه الحال تغدو الدولة شيئاً غريباً بل هي قوة معادية، أنها بدأت الخوف والقلق في نفوسهم فالارتماء داخل قبو الذات أولى من الارتماء في رحاب تلك الدولة التي باتت تثير

الخشية في نفوس إفرادها خصوصاً إذا علمنا إن واحدا من صفات المغترب انه يرفض ما يشيع في مجتمعه من معايير قد تكون دينية أو سياسية أو أخلاقية فاسدة أو قيم أخلاقية زائفة.

وعلى ذلك يكون الاغتراب بالمعنى الإسلامي اغتراب عن الحياة الاجتماعية الزائفة واغتراب عن النظام الاجتماعي غير العادل فالغرباء قاوموا الحياة ومغرياتها بطريقة ايجابية فقهروا السلطتين معا سلطة الحكام وسلطة النفس بترويضهما على الطاعات والمجاهدات واعتزالهما عن الناس فحل النظام الروحي الداخلي الذي يشيع في النفس الشعور بالأمن والأمان محل النظام السياسي الخارجي الذي ادخل الرعب والخوف والقلق في قلوب المسلمين بعد إن تفشت بينهم فتنة الشهوات وفتنة الشبيهات[١٩].

العلاقة بين الفلسفة والخوف والقلق في الحضارات الشرقية القديمة:

لقد اقتصرت على شواهد وصور من بلاد الرافدين كنموذج لتلك الحضارات التي بحثت مثل هذا الأمر فلقد تناول الإنسان البابلي القديم مسألة الوجود وطرح مواقف أخلاقية أبرزت بدورها الكثير من القيم الأخلاقية وذلك كان عن طريق التفاعل بين الإنسان والطبيعة فنرى مثلاً في ملحمة كالكامش والأدب البابلي القديم وقوانين حمورابي وجملة من الأمثال والحكم البابلية والسومرية فكل هذه الأمور كانت تقرر قيم أخلاقية وهذا بدوره قاد الانسان البابلي إلى إدراك مأساة الانسان وهذه المأساة تتمثل بحالة الفناء والموت واللاخلود وقد أدت به إلى حالة فردية تشاؤمية وكان لابد من أن يتخطى هذا الموقف وحالة التشاؤم هذه عن طريق التفكير بمحاربة الجزع والفزع والخوف وحقق فعلاً الانتصار على حالة الخوف هذه من خلال القضاء على الفردية والارتماء في أحضان المجتمع، حيث إن وضعه الجديد يكون فرد في مجتمع يفرض عليه قيم جديدة ووضع جديد من عمل ومساواة بالإضافة إلى انه وفي ضوء ذهابه إلى المجتمع فأنه قد تغلب على حالة الخوف هذه من خلال إيمانه بقدرة الإنسان فتولد التفاؤل من خلال التسليم بأن هناك حياة أخلاقية أفضل.

(مرحلة الفلسفة بنماذج منتجبة)

إن الفلسفة في صميمها تساؤل عن معنى الحياة الإنساني وسعي دائب من اجل تفهم حقيقة المصير الإنساني ٢٠ وهناك الكثير من الفلسفات التي بحثت في موضوعات الخوف والقلق والمصير والسعادة واللذة والانا والصداقة وموضوعات أخلاقية وقف عندها الفلاسفة بشيء من التفصيل وهي لازالت بحاجة إلى المزيد من البحث. وهذا أرسطو مثلاً عرف الخوف على انه تصور الشر، وإننا نخاف الأشياء التي من شأنها تخاف، وإننا نخاف الشرور من كل نوع كالفقر والمرض والموت. ويثير أرسطو موضوع الخوف هنا متداخلاً مع مفردة الشجاعة عندما يجعل منها وسطا بين الخوف والجرأة، فليست الشجاعة عنده استصغار الأشياء وعدم المبالاة بها، والشجاعة تنحصر عنده في المواقف المجد والفخار في الحرب، والرجل الشجاع هو الرجل الذي لا يتزعزع ولكن ليس معنى ذلك انه يجب أن لا يبالي به خوف انه لعلى حق في أن يخاف كل الأخطار التي يجب على العاقل أن يخافها، لان الذي لا يخاف أصلاً ولا يبالي بأي خطر مهما عظم هو أن يسمى مشهوراً أحق منه بأن يسمى شجاع.

وجدنا في الفقرة السابقة إن أرسطو يعرف الخوف هو تصوير الشر. فنحن نخاف الشرور من كل نوع كالفقر والمرض والبغض[٢١] والفضائل عنده ليست فينا بالطبع وحده وليست فينا كذلك إرادة الطبع وهذا

ما دفع أرسطو للقول بان الفضيلة مكتسبة، في هذا المقام يلتقي مع ابن حزم في كون الفضيلة مكتسبة إذ يقول أرسطو (فرض على الناس تعلم الخير والعمل به ومن جمع الأمرين فقد استوفى الفضيلتين معا)[٢٢].

ويقول ابن حزم بهذا الصدد (فقد تتغير الأخلاق الحميدة بالمرض والفقر والخوف وبالغض والهرم)[٢٣]. ولقد جعل ابن حزم من الخوف ومن الفقر والمرض والغضب والتقدم بالسن اشد الأشياء على الناس، وأشدها كلها إيلاما للنفس هو الهم بفقد المحبوب وتوقع المكروه، ثم المرض ثم الخوف، ويعتقد ابن حزم إن الخوف والفقر هما أمران يستعملان ليطرد بهما الم المرض، فيغرر الإنسان في طلب الصحة، ويبذل ماله إذا أشفق من الموت، والخوف هنا يستسهل به ليطرد الهم فيغرر المرء بنفسه ليطرد عنه الهم[٢٤].

ويرى اسبينوزا إن النزوع الأساسي للكائن هو حفظ ذاته[٢٥] ومن الواضح إن حفظ الذات هنا هو الذي يزيد من قلقه وربما أيضاً هو جعل من القلق الايجابي واحدا من وسائله للتغلب على الانفعالات في السلوك البشري والتي عدها جزء لا يتجزأ من الطبيعة البشرية وتسري عليها قوانين الطبيعة ذاتها.

وقد عرف اسبينوزا هذه الانفعالات بما يتفق ومقتضيات مذهبه إذ يرى إن كل فرد يقوم أول ما يقوم بحب طبيعته الثابتة والرغبة أو الاشتهاء التي هي جهد يبذله الفرد في سبيل الحفاظ على كيانه وبقائه واجتناب تأثير الأجسام الأخرى إن كان هذا التأثير ضارا بوجود الفرد وبقائه في الوجود[٢٦]. من هنا نعلم إن رغبتنا في أن نعمل أي أن ننتقل من أفكار لا مطابقة إلى أفكار أخرى أكثر تطبيقا فنسمو بكياننا الخاص وتضل الرغبة أصل العواطف جميعا من فرح وحزن وحب وخوف وقلق، لان رغبة كل إنسان ما هي إلا جهده لتحقيق ذاته وحفظ كيانه إلى أقصى حدا يستطاع.

ومعنى هذا إننا طالما ندرك أن أفراحنا وأحزاننا ينبغي أن تكون منسجمة تماماً مع القوانين الطبيعية ولا نعود نطلب الأشياء إلا لاتصالها بميلنا الأساسي الذي هو حفظ الذات وحب البقاء، فتصدر أفعالنا وفقا لطبيعتنا فنحصل على الفضيلة الحقيقية إلى القدرة على العمل وفقاً للقوانين الكونية فتختفي مشاعر الحزن والخوف والقلق واليأس والغضب والكراهية وتكون النفس في حالة سرور دائم ويبدو إن مارتن هايدجر أدرك جيداً النهاية المحتومة للإنسان بموجب التسليم الذي يعي جيداً بأن الإنسان كائن مخوف بالمخاطر ونهايته واقعة لا محال ويمكن في أي لحظة إن يخفي من الوجود بحكم موته والذي يراه هايدجر هو الإمكان المسيطر على الوجود البشري، انه الإمكان الذي تخضع له جميع الإمكانات الأخرى والنتيجة المنطقية الأخرى والنتيجة المنطقية التي تترتب على ذلك هو قلق مستمر في صميم وجودنا.

الإنسان الغربي والخوف من الأزمات

إن التقدم الهائل الذي أحرزته الحضارة الغربية خلال العصور القليلة الماضية كانت نتيجة إحساس الإنسان الغربي بعزلته عن باقي الكون وشعوره بالانسلاخ أي إن الإدراك المباشر بالنسبة لمقدرته على العمل هو في انسجام تام مع التحليل الفكري، ولكن هذا النجح اوجد معضلات كثيرة أيضاً، لقد وجد الإنسان الغربي نفسه يعيش في دوامة مفزعة ومخيفة من الازمات[٢٧].

ولقد برهن له العلم إن الإنسان صدفة حياتيه يعيش على كوكبا من الدرجة الرابعة ويخبره التاريخ إن السقوط آت لامحاله، وان الاختلال العصبي هو مصير إنساننا الذي يعيش في هذا القرنان الهزيمة لابد منها بشكل أو أخر. فيظل الإنسان في دوامة الأزمات ينتابه القلق والخوف والفزع من الأزمات لأنه إنسان خائف وقلق. فمهما كانت محاولة ذلك الإنسان ومهما كانت قدراته في السيطرة على العالم الخارجي فسوف

يضل أنساناً قلقاً خائفاً، فعليه إن يفكر في ذاته ويقلق على نفسه ويسأل عن معنى حياته وهو الحيوان الوحيد الذي يعي تماماً انه سيموت(٢٨).

إن الجنس البشري قد حقق تقدما تكنولوجيا وماديا في الخمسين سنة الماضية أكثر مما حققه خلال القرون الاخيرة برمتها فقد زادت المسافات المتاحة للإنسان، فيقال إن الثلاثين سنة القادمة سوف تستبدل تماماً المحركات ذات المكبس القديم بسفن تديرها الطاقة النووية، وان اليوم الذي ستقوم به الكابلات الكهربائية تحت ارض الشوارع بتسيير السيارات الكهربائية على الطريق قريب، وقد بحث (جان روستا) تطور الإمكانات السحرية للبيلوجيا، حيث ذهب إلى انه استخدام مواد وراثية من أناس بالغي الذكاء سيتمكن الجنس البشري من تشكيل نفسه وإذا نجح العلماء وإذا نجح العلماء (DNA) بطريقة صناعية (وهو القاعدة الكيميائية للوراثة في الكروموزومات) فأن احتمالات جديدة لا حدود لها ستظهر في حياتنا بحيث يستطيع كل إنسان إن يحصل على طفل مصمم وفق رغبته، وان العقل البشري الذي يحتوي على عشرة بلايين خلية يمكن إن يضاف إليه بضع بلايين أخرى مأخوذة من مكان أخر ومنتجة بطريقة خاصة، كما إن اكتشاف أسباب تدهور المخ سوف يجعل ممكنا ذلك الحلم الذي راود الإنسان حلم إطالة العمر وذلك عن طريق تقليل ساعات النوم الذي يحتاجها الإنسان.

إن فشل العلم في مجالات مختلفة وإخفاق الحضارة البين في سعيها في حل مشكلة الإنسان وسعادته بواسطة العلم والقوة والثروة. أقول هنا: هل إن العلم اخفق في التقليل من مخاوف قلق الإنسان، هل أخفقت الحضارة في تحقيق مثل هذا الأمر، هل إن فكرة هذه المسميات من علم وحضارة هي عاجزة عن تكوين فهم واضح ودقيق عن الإنسان فالوقائع وعبر تاريخ البشرية الطويل يؤكد ذلك، فالقلق البدائي ذاته يتجدد عند المعاصرون من بني الإنسان وهذا لا يعني إننا ننقد العلم والحضارة وهي ليس دعوة لرفضهما وإنما هو تأكيد من قبلنا على إنهما عاجزان عن التقليل من مخاوف الإنسان وقلقه، كأنني أجد تلازما بين التقديم في هذين المحفلين والتشاؤم الناتج عنهما، اذهب وابحث في أكثر الفلسفات المتشائمة سوف تجد أنها خرجت من أكثر البلدان تقدما.

الهوامش:

١-انظر/ احمد أمين/ الأخلاق ص١٧/ دار الكتاب العربي بيروت/ ١٩٦٩.

٢-انظر/ مرتضى ألمطهري/ فلسفة الأخلاق/ النجف الاشرف/ العراق/ ١٤٢٤هـ.

٣-النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، ج١، دار المجتبى، النجف الاشرف ط١/ ٢٠٠٦/ ص٢٤٢.

٤-المصدر نفسه، ص٢٤٢.

٥- احمد أمين/ المصدر السابق/ ص٢٧.

٦- الموسوعة العربية/ المجلد الأول ص٦٧٧.

٧- المصدر نفسه/ ٦٧٧.

٨- الأنا والهو/ فرويد ص٩٢.

٩- أبراهيم الدر/ الأسس البيلوجية لسلوك الإنسان/ الدار العربية للعلوم ص١١٠.

١٠- جامع السعادات ص١١.

١١- إبراهيم الدر/ المصدر نفسه/ ص٢٢٦.

١٢- إبراهيم عبدالستار/ الإنسان وعلم النفس/ ص١٨٩- ص١٩٠.

١٣- الموسوعة العربية/ ص٧٤٨.

١٤- المصدر نفسه/ ص٧٤٩.

١٥- أفلاطون/ محاورة فيدون/ ص٥٥- ص٥٦.

١٦- الموسوعة العربية/ ج١/ ص١٠٥.

١٧- محمد إبراهيم الفيومي/ ابن باجة وفلسفة الاغتراب/ دار الجبل/ بيروت/ ص٥٨ بدون تأريخ طبع.

١٨- المصدر السابق/ ص٧٢.

١٩- فتح الله خليف/ مجلة عالم الفكر/ الاغتراب في الإسلام/ المجلد العاشر/ العدد الأول/ ١٩٧٩.

٢٠- زكريا إبراهيم/ المشكلة الفلسفية/ دار المرتضى/ ص١٧.

٢١- أبو بكر بكري/ النظريات الأخلاقية/ ص٦١.

٢٢- أرسطو/ الأخلاق إلى نيقوماخوس/ كم٢/ ب١/ ف٢/ ص٢٢٤- ص٢٢٦.

٢٣- ابن حزب/ الأخلاق والسير في مدارة النفوس/ تحقيق وتقديم الطاهر احمد مكي/ دار المعارف/ القاهرة/ ١٩٦٢/ ص٢١٠-٢١١.

٢٤- المصدر نفسه/ ص٢١١.

٢٥- فؤاد زكريا/ سبينوزا/ دار التنوير للطباعة/ بيروت/ ١٩٨١/ ص١٢.

٢٦- عادل العوا/ المذاهب الأخلاقية/ ج١/ دمشق/ بدون تأريخ طبع/ ص٢٧٣.

٢٧- كولن ولسن/ ما بعد اللامنتمي/ ص١٨٨- ١٨٩.

٢٨- الالوسي، حسام الدين، الفلسفة والحياة/ دار الحكمة/ بغداد/ ١٩٩٠/ ص١١٦.